تعاون العرب فى وضع دائرة معارف عربية

للدكتور أحمد أمين

كل الأمم الحية اجتهدت فى أن تضع لها دائرة معارف تشتمل كل الفروع ، وهى تجددها كلما مرّ زمن تغيرت فيه معالم العلوم ، حتى أننا نرى الانسليكوپديا الإنجليزية جُددت أربع عشرة مرة . وسارت الأمم الأخرى سير انجلترا فى دائرة معارفها . وكل أمة تعتز بذلك لأنه يدل على تقدمها ونهوضها . ومن المؤسف أن الدول العربية لم تضع لها دائرة معارف كاملة إلى اليوم . لقد فكّر فى ذلك فى عهد اسماعيل باشا المعلّم بطرس البستانى ، وأمده اسماعيل باشا بجزء من المال. ولكن كان عيبها : أولا ، أنه لم يكن قد وصل إلى تأليفها إلى حرف العين ولم يتمها ، واخترمته المنية هو وابنه قبل إتمامها ، وثانياً ، أن العلوم والآداب والفنون تقدمت منذ عهده ، ولم تعد دائرته صالحة كل الصلاحية . وقام بمثل هذا العمل أيضاً الأستاذ محمد فريد وجدى ولكن عيبها أيضاً أنها غير وافية ، وثانياً أنه اعتمد فيها على نفسه فقط ، ولم يستعن بالاخصائيين ؛ مع أن دائرة المعارف عادة تشمل الجغرافيا والتاريخ والأدب والطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة والفلك وما إلى ذلك . ومحال أن يلم إنسان كائنا من كان بهذه الفروع كلها ، فضلا عن التبحر فيها ، فما أحوجنا اليوم إلى دائرة معارف تناسب العصر. نعم ، قام بعض كبار المستشرقين بدائرة معارف إسلامية ، ولكنها مقصورة على المواد الإسلامية من جهة ، وغير مشبعة بالروح الإسلامية من جهة أخرى . وهذه الدائرة التى نطمح إليها ، لابد أن يسبقها الفراغ من وضع المصطلحات الحديثة فى الأدب والعلم والفن ليستعين بها كتّاب دائرة المعارف . وهذه وظيفة المجامع اللغوية ، يضعون المصطلحات لهذه الأمور كلها ، يفرغون منها ويتفقون عليها . والطريقة المثلى فى ذلك أن يمسكوا بدائرة من دوائر المعارف الأجنبية الفنية ويفرغون من وضع مصطلحات لها ، ثم يأتى دور كتاب دائرة المعارف . ولابد أن يتفرغ لها المتخصصون بجميع الأقطار العربية كل فى فرعه الخاص ، من

فلسفة وعلم وأدب وفلك ورياضة إلى غير ذلك ، وهذا عمل ضخم يحتاج أولا ، إلى مال كثير ، لأن الأيام عودتنا أنّ ما لم يؤجر لا يعمل ، ثانياً ، يحتاج إلى إنشاء مكتب فنى يكون من اختصاصه وضع الفيشات لكل المواد على حسب التسمية العربية ، وتوزيع كل مادة أو طائفة من المواد على الفروع المختلفة . وهذا لابد له من مهارة فنية خاصة . وبعد ذلك يطبع طبعاً أنيقاً محلى بالصور والخرائط وتساهم فيه جميع الأقطار العربية . وعندئذ فقط يمكن أن نقول إننا وضعنا الحجر الأساسى للنهضة الشرقية ، فدائرة المعارف هذه كفيلة بأن تذيع الثقافة العالية بين المتنورين من المتكلمين بالعربية . ولا نكون إذ ذاك عالة على الغربيين فى دوائر معارفهم . ويمكن بعد ذلك أن نقوم باختصار لهذه الدائرة لتكون قرب اليد ، ونهزة المستنجد . وربما كان لابد أن يسبق تنسيق وتوسيع للمعاجم المختلفة. هذا معجم للغة يوافق حاجات العصر ، وهذا معجم للطب كذلك ، وهذا معجم للجغرافيا ، ونحو ذلك بحيث تكون مواد أولية لدائرة المعارف . وإذا كان الغربيون يولون أكبر عنايتهم لعلماء الغرب ونوابغهم وشعرائهم وأدبائهم وفلاسفتهم فلنول نحن عنايتنا برجالنا ونوابغنا وعلمائنا وفلاسفتنا وأدبائنا وشعرائنا ؛ سواء منهم الأقدمون أو المحدثون . وإذا كان الغربيون يولون اهتمامهم لجغرافية بلادهم فلنول نحن اهتمامنا بجغرافيتنا . ولنا من التراث القديم والتراث الحديث ما يملأ أجزاء عدة . وعندنا من المختصين فى كل علم وفن من يستطيع أن يملأ مادته بحمد الله ، مستعينين على ذلك بما سبقنا به الغربيون فى تدوين دوائر معارفهم . وعندنا أيضاً من الموسوعات اللغوية أمثال لسان العرب والمخصص والموسوعات الأدبية والتاريخية والجغرافية ، أمثال نهاية الأرب وصبح الأعشى ونحو ذلك . ولم تبق أمة حية على وجه الأرض من غير أن يكون لها دائرة معارف بلغتها ، تسايرها مع الزمن ، وكلما تقدم العلم والفن طبعتها طبعة جديدة تساير العلم والفن ، إلا الشعوب العربية لأنها وقفت ولم تقم بهذا العمل ، وربما كان أكبر سبب فى ذلك أن الشعوب العربية لم تضع مصطلحات حديثة للعلوم والفنون الحديثة ، وإذا وضع شعب بعض الشىء ، فلم تتفق كلها على مصطلح واحد . هذه بلد تقول الطبيعة ، وأخرى تعرب الكلمة الأفرنجية وتسميها فيزيقيا ، وهكذا يجب أن توحد هذه المصطلحات أولا ، وتتم ثانياً ، ثم تستغل فى دائرة المعارف ثالثاً ، فما لاشك فيه أن دائرة المعارف هذه ، من أول مظاهر المدنية الحديثة .

وقد كان المسلمون الأولون يؤلفون دوائر معارف مثل إخوان الصفا فى الفلسفة ، وكتب الجاحظ فى الاجتماعيات والأدبيات ونهاية الأرب ومسالك الأبصار فى العلوم المختلفة . ولكنها لم تكن شاملة من جهة ، ولم تكن مرتبة على حسب حروف المعجم من جهة أخرى ، فجاءت المدنية الحديثة فنظمت هذا العمل ووسعته ، وجعلته وفق حاجات العصر الحديث . فما بالنا لا نعمل عملهم ولا نسير سيرهم : والحاجة شديدة إلى مثل عملهم .

إن كثيراً من الشبان يهرعون إلى دوائر المعارف الأجنبية ، فيأخذون منها بغيتهم ولكن المثقفين باللغة الأجنبية فى كل أمة عدد قليل ، بجانب الكثرة البالغة ممن لا يعرفون غير لغتهم . ولقد سئل السيد أحمد خان رحمه الله ، عن أيهما خير : أنعلّم طائفة من الهنود لغة أجنبية أم ننقل العلوم والمعارف الأجنبية إلى لغة البلاد؟ فنصح بالطريقة الثانية ، لأنها تثقف عدداً أكبر ، وقال : لوددت أن أكتب بحروف من نور على جبال الهملايا مطالباً بنقل العلوم والمعارف الأجنبية إلى لغة البلاد.

لقد مر على الأمم العربية زمان طويل يزيد على مائة سنة ، وكان هذا يكفى لتعريب المصطلحات الأجنبية ، واستخدامها فى دائره المعارف العربية ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث إلى اليوم فتراكمت المصطلحات والمعلومات ، وأصبح العمل شاقاً عسيراً . لأن العلم لم يقف عند حد ؛ وكلما مر الزمن ، تضاعفت المواد . فما لم تبادر الأمم العربية ، غرقت فى هذا التيار الغزير قبل أن تتغلب عليه . ومن غير شك تأليف دائرة المعارف العربية ، ومساهمة الشعوب العربية فى وضعها ، يوثق الصلات بينها . ويقلل من الاختلافات اللغوية والعلمية والأدبية ويجعلها تسير سيراً واحداً ، وفى طريق واحد .

قد تسألنى .. إن هذا العمل الضخم يحتاج إلى مال كثير ، فمن أين نأتى بهذا ؟ فأقول .. إن هذا المال يسهل على الشعوب العربية المختلفة أن تتحمله فهى قادرة على تخصيص مليون من الجنيهات أو مليونين أو أكثر متى صدقت النية ، ومثل هذه المبالغ أنفقت فيما يقل عنها فائدة . ولكن العلم والأدب ضائعان دائماً ، وتبذر الأموال فيما لا يبقى ولا يفيد ، وتحجز الأموال عما يبقى ويفيد . واستنارة مائة واحدة من كل أمة من هذا العمل الضخم يساوى هذا المبلغ أو أكثر منه .

فقتل الجهل لا يقل شأناً عن إحياء نفوس الأفراد . والشرقيون على العموم لا تنقصهم الفكرة الصالحة ، فعندهم آلاف من الآراء النافعة ، ولكن ينقصهم ربط الفكرة بالعمل . والتنظيم الإدارى للتنفيذ ، والأمم تختلف فى ذلك اختلافاً كبيراً . فالأوربيون على العموم ، أكثر تنفيذاً للفكرة من الشرقيين ، وربما كان الأمريكيون أكثر من الأوربيين فى ذلك فقد عد من أكبر فضائلهم ربط الفكرة بالعمل ، ولو كانت الفكرة غريبة . أما الشرقيون ، فلا يخلو مجلس من مجالسهم من اقتراحات ، ومن تعداد للعيوب ، ومن ذكر وسائل لإصلاحها ، ولكن كل هذه المجالس تنتهى بعد الأخذ والرد بقولهم . . أصلح الله الحال . . لأن الله لا ينزل الإصلاح من السماء ، من غير مباشرة عمل منهم . وقد عهدنا كما قال عمر . . أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ونقول نحن ، ولا تمطر دوائر معارف ولا تمطر أنواع الإصلاح المختلفة ، ما لم يبدأ الزعماء بالعمل ، والله الموفق .